الأول، وعلى اللَّه سبحانه في النصر المُعوّل. نجاهد في اللَّه حقّ جهاده، ونرابط في الثغور لحفظ عباده وبلاده. والوزير المكرم، والباشا المعظم، محافظ المدينة ووالي بندر جدة، هو أقرب الجيوش السلطانية إلى ديارنا فإن عرض لدينا أو لديه عارض فنحن يد واحدة. والإسلام أعظم رابطة والمؤمنون أخوة. ودمتم في خير، آمنين من كل بؤس وضير. انتهى جواب مولانا الإمام على وزير الختام. وبعد وصول الكتب السابقة، ورجوع الجوابين عنها، بلغ أن وزير الختام خرج بجيوش السلطنة من اصطنبول إلى مصر وضايق الفرنج المتغلبين عليها مضايقة شديدة، وأخرجهم من أكثرها. ثم بعد ذلك انعقد بينهم الصلح على أن يخرج الإفرنج عن مصر ويعودوا إلى بلادهم، فاجتمعوا وخرجت منهم فرقة في المراكب فوصلوا إلى البحر واعترضتهم طائفة الإنكليز من الإفرنج واستولوا على بعض مراكبهم فرجعوا إلى أصحابهم الباقين بمصر، وأخبروهم بما وقع من الإنكليز من الغدر، وظنّوا جميعاً أن ذلك مكيدة من وزير الختام، فاجتمعوا وأقبلوا إليه مقاتلين، وقد كان فرَّق من عنده من جيوش الإسلام ركوناً إلى الصلح وتفريطاً منه في الحزم، فانهزم من الإفرنج، فقيل: انهزم إلى الشام، وقيل: قتل، وقيل: مات حتف أنفه، واللَّه أعلم أي ذلك كان. واستولت الإفرنج على أقليم مصر، ولم يبلغنا إلى الآن، وهو سنة (١٢١٥) ما كان. وصاحب الترجمة يُوسف باشا صاحب المدينة (توفي) في هذا العام عام خمسة عشر ومائتين وألف.

ثم جاءت الأخبار الصحيحة والكتب من شريف مكة وغيره في شهر جمادى الآخرة سنة ١٣١٦ ست عشرة ومائتين وألف أن الجنود الإسلامية السلطانية أخرجت طائفة الإفرنج أقماهم اللَّه من الديار المصرية بعد أن ضايقوهم وحاصروهم وقتلوا أكثرهم وخرج الباقون في أمان، وعادوا إلى ديارهم. وتواترت هذه الأخبار، وصحّت والحمد للَّه رب العالمين. فإن هذه الحادثة العظيمة اضطربت لها جميع الديار الإسلامية، ورجفت عندها قلوب الموحدين، وتزلزلت بسببها أقدام كثير من المجاهدين، فالحمد للَّه الذي نصر دينه.

(٥٩٧)

(يُوسف أغا الرومي أحد خواصّ الباشا خَليل)

الواصل لحرب الأشراف المستولي على المملكة التي كانت بيد الشريف حَمّود وولده أحمد، وهي البلاد العريشية، وما أخذه حَمّود من البلاد الإمامية بإعانة أصحاب النجدي له، وذلك اللحية والحديدة وزبيد وبيت الفقيه والزيدية، وما دخل في حكم هذه المحلات فإنها ثبتت عليها يد الشريف حَمُّود من سنة (١٢١٧) إلى أن مات في تاريخه سنة (١٢٣٣) المتقدم. ثم ثبت عليها ولده أحمدبعده مقدار سنة، فوصلت

الجنود التركية مع الباشا خليل، وانتزعت البلاد من يده من غير ضربة ولا طعنة، بل استسلم وألقى بيده إلقاء الأمة الوكعاء، وأمروه أن يكتب إلى البنادر اليمنية بأن يخرج منها المرتبون من جهته، ويدخل فيها المرتبون من جهة الباشا، ففعل فخرجوا منها جميعاً، ولم ينتطح فيها عنزان. وهي قلاع حصينة فيها رتب متوافرة. ثم لما ثبتت يد الباشا على ما كان بيد الشريف حَمُّود وولده، وصل من عنده كتاب على أيدي رسل من الترك وفي طيه كتاب من الباشا الكبير باشا مصر مُحمّد علي وهو المرسل للباشا خليل إلى اليمن ومضمون كتاب الباشا مُحمَّد على أنه قد جهّز الجنود على الأشراف لانتزاع البلاد من تحت أيديهم، وفيه الوعد بإرجاعها إلى مولانا الإمام. وكان تاريخ الكتاب قبل استيلاء من بعثه من الجند عليها ومضمون كتاب الباشا خليل طلب رجل من جهة الإمام إلى عنده ممن يركن عليه ليقع الخوض معه شفاهاً. فبعث الإمام الولد القاضي العلَّامة مُحمَّد بن أحمد الحرازي بعد المشاورة بيني وبينه في ذلك، فنفذ الولد محمد، ونفذ صحبته جماعة، واستقر هنالك نحو أسبوع، ثم رجع ومعه جماعة من الأتراك منهم صاحب الترجمة، وهو الأمير عليهم، فوصل إلى الحضرة الإمامية، ثم وصل إليّ فوجدته رجلاً في أعلى درجات الكمال من كل وجه بحيث لا يوجد نظيره في رجال العرب إلّا نادراً. وكان حاصل ما وصل به ما عبر عنه بلسانه وما هو مضمون كتاب الباشا أنها تعود تلك البلاد إلى الإمام على شريطة وهي تسليم ما كان عليها فيما مضى، ولم يكن عليها فيما مضى شيء، ولكن بعض تجار اليمن الذين يرتحلون إلى مصر كذب على الباشا مُحمَّد على أنه كان عليها مرجوع إلى السلطنة، فوقع التصميم من الباشا خليل ورسوله هذا أنه لا بد من ذلك، فأوضحنا لهم أنه لم يكن عليها شيء منذ انتزعها أولاد الإمام القاسم إلى الآن، زيادة على مائتي سنة. وفي خلال ذلك وصل كتاب من الباشا خليل أنه يقع مقدار من البنّ في كل عام، وهو شيء يسير يصير إلى مطبخ السلطان، ويقع تسليم شيء من النقد في حكم «بغشيش» للجنود الرومية المنتزعة للبلاد من يد الأشراف، فوقعت المساعدة إلى ذلك لكونهم قد بدأوا بالإحسان، وتبرعوا بالجميل، ولم يصدق الناس ذلك، ولا خطر ببال أحدهم صحته، وعدوه مكراً وخداعاً، وناصحوني بالرسائل من الجهات البعيدة فضلاً عن الجهات القريبة بما حاصله أن الركون إلى هذا لا يقع من عاقل ولا يدخل فيه من له فطنة. وحذروني من ذلك غاية التحذير، فكنت أجيب عليهم أن هؤلاء عرضوا علينا المسالمة والمصالحة ابتداء، فليس لنا أن نرد ما عرضوه علينا بادئ بَدْء، وإن اللَّه سبحانه يقول: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا﴾ [الأنفال: ٦١]، ومع هذا فقد اعتقد الخاص والعام والكبير والصغير أنهم سيطوون جميع الديار اليمنية بأيسر عمل، لأَن القلوب قد ارتجفت بعد استيلائهم على صاحب نجد، وهو صاحب الجيوش الكثيرة والأحوال

المتضاعفة حسبما قدمنا في ترجمته، ثم أخذوا ما بيد الأشراف صفواً عفواً. وبهذا السبب كانت جنود اليمن من جميع القبائل متفاشلة متخاذلة مرتجفة، لم يبق همهم إلّا بأنفسهم وحريمهم. وكانوا يبذلون الجهاد كذباً وافتراءً فإنها لو خرجت الأتراك على بقية البلاد لم تنتشر لهم راية ولا اجتمع لهم جيش، بل كان كل قبيلة منهم ستلزم محلها، فإذا قرب الأتراك منهم هربوا من أوطانهم كما هرب المتابعون للنجدي من طوائف العرب، وهو غالب أهل جزيرة العرب. فجاء اللَّه بأمر لم يكن في حساب، وجرت من الألطاف ما لا تقبله العقول. ثم عاد الأغا يُوسف صاحب الترجمة ومعه الولد مُحمَّد بن أحمد الحرازي إلى تلك الجهات ونفذت عمال الإمام إليها مع كل واحد طائفة من الجند، فخرج من في تلك المحلات من الأتراك ودخلت إليها عمال رتبوها من جند الإمام وتم الأمر بمعونة اللَّه سبحانه، وإذا أراد اللَّه أمراً هيأ أسبابه. وجعل مولانا الإمام الوالي في البلاد العريشية الشريف علي بن حَيْدر بن عليّ حسب القاعدة المستمرة أنه يتولى تلك البلاد شريف من الأشراف من جهة الأئمة، وعليها كل عام شيء يرسلونه إلى الأئمة. وكان من أعظم أسباب ولاية الشريف علي بن حَيْدر أنها وصلت إلى مولانا الإمام شفاعة له من الباشا خليل بأن يوليه الإمام البلاد العريشية، كما كان عليه أسلافه مع أسلاف الإمام، وعليه ما عليهم، فوقعت المساعدة إلى ذلك، ونفذ له عهد الولاية والكسوة والمركوب، وارتحل الباشا خليل وسائر من معه من جنود الروم من البلاد العريشية لمناجزة البلاد العسيرية لأنهم قد كانوا متابعين للأشراف. وأما الشريف أحمد بن حمُّود فأدخلوه إلى باشا مصر. ولعله يدخل إلى السلطان. وهكذا أدخلوا جماعة من الأشراف ممن كانوا من المقربين عند حَمّود وولده، وكان المتكلم في دولة الشريف حَمّود وولده، الشريف حَسَن بن خالد الحازمي، وكان من أهل العلم، فكان يتوقف الشريف حَمّود وولده من بعده في الأمور الشرعية وفي جميع الأمور الدولية على رأيه، ولا يُردُّ له قول. وكان يجمع الجيوش ويغزو بهم إلى الأطراف المجاورة للبلاد التي كانت بيد الأشراف وكان هو السبب في تفريق كلمة الأشراف وإدخال الشحناء بينهم. وكان ذلك سبباً لفرار الشريف عليّ بن حَيْدَر إلى الباشا بمكة واستجارته بالأتراك وبقائه لديهم نحو خمس سنين. وكان هذا أحد الأسباب في خروج الأتراك إلى اليمن. والسبب الآخر أن الشريف حَسَن بن خالد الحازمي جمع طائفة من قبائل عسير وغزا بهم إلى قريب الطائف، فارتجف من ذلك من في مكة من الأشراف، وهذا وقد كانوا استولوا على النجدي وعلى بلاده وأدخلوه الروم، فأعجب من طيش الشريف حَسَن بن خالد فإنه تسبَّب أولاً وثانياً إلى هذه النازلة التي نزلت بالأشراف، وما شاء اللَّه كان، وما لم يشأ لم يكن. وكان الشريف حَسَن بن خالد عند وصول الترك إلى البلاد العريشية في بلاد عسير،

فتقدم عليه طائفة منهم وجرت هنالك حروب آخرها قتل الشريف حَسَن بن خَالد، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

٥٩٨

(السيد يُوسُف بن يَحْيَى بن الحُسَين ابن الإمام المؤيَّد مُحمَّد ابن الإمام القَاسِم الصّنعاني)[١]

أخذ العلم عن والده، وعن السيد العلَّامة الحَسَن بن الحُسين، ومال إلى الأدب ونظم الشعر، وصنّف (نسمة السحر في ذكر من تشيَّع وشعر) ذكر فيها جماعة من الشعراء المتقدمين المشهورين، ومن أهل عصره، ومن يقرب من أهل عصره. وهو كتاب حسن لولا ما شابه به من التسخط على أهل عصره ورميهم بكل عيب، والتنويه بذكر العبيديين وغيرهم من الرافضة، وانتقاص الأئمة وأكابر السادة الذين هم عنصره وأهل بيته وذوو قرابته. كما وقع منه ذلك في ترجمة إبراهيم اليافعي وفي سائر الكتاب، وكثيراً ما يذكر قولاً من أقوال الإمامية في غاية السقوط فيميل إلى ترجيحه وتقويته تصريحاً وتلويحاً، ولكنه يأتي بحجج لا تشبه حجج العلماء. وهو إمامي المعتقد، ولم يكن في أهل بيته من هو كذلك، فإن والده المتقدم ذكره كان زيدياً، وكذلك سائر قرابته. وبالجملة فكتابه المذكور من أحسن الكتب المصنفة في الأدب وأنفسها. وكثيراً ما يفوته الترتيب باعتبار الأب والجدّ فيقدم مثلاً من كان حرف والده متأخراً على حرف والد من بعده كتقديمه إبراهيم بن العباس الصّولي على إبراهيم بن أحمد اليافعي والصواب العكس. وكتقديمه ترجمة مُحمَّد بن هانئ على ترجمة مُحمَّد بن الحُسين المرهبي، وكان الصواب العكس. وكذلك تقديمه لِلمَذكُورين على مُحمَّد بن إبراهيم السّحولي، والأولى العكس، ونحو ذلك مما في ترتيب ذلك الكتاب. والذي ينبغي لمن تصدّى للجمع على الحروف أن يقدم باعتبار أول حروف اسم المترجم له ثم الثاني إلى آخره، ومع الاتفاق في الاسم يقدم من كانت حروف أبيه أقدم، ومع الاتفاق في اسم الأب أيضاً ينظر إلى حروف اسم الجدّ، ثم كذلك، كما فعله المصنفون على الحروف، وهو شيء واضح. ومن شعر صاحب الترجمة قوله من قصيدة كتبها إلى السيد عليّ بن أحمد بن مَعْصُوم المدني: [من الطويل]

وَقَدْ عَمَّم الغيمُ الرّواني فَأرسلتْ ذَوايب بَرْقٍ لَوَّحتْ في الدُّجى رُقْطا[٢]

---

(١) ترجمته في: هدية العارفين: ٢/ ٥٦٨؛ إيضاح المكنون: ٢/ ٦٤٥؛ معجم المؤلفين: ١٣/ ٣٤٣؛ الأعلام: ٨/ ٢٥٨.

(٢) عَمَّمَ فلاناً: ألبسه عمامةً، وعَمَّ الأرض: شَملها. ذوايب: ذوائب: جمع ذؤابة: شعر مُقدَّم=